الأسطورة واللغة الدينية

عادل تيودور خوري

الكلمات المفتاحيّة: الأسطورة، الدين، الثقافة، الحياة، أسطوريّة الدين، الإنسان.

توطئة: أعتذر عن عدم تحدّثي عن الأسطورة في الشرق، فأنا غائب منذ ما يقارب الثلاثين عامًا، ولهذا أنا لا أملك معرفة دقيقة عن التطورات الفكرية التي حدثب في الشرق على هذا الصعيد.

أسمح لنفسي إذًا بالتكلم عن الأسطورة كشكل من أشكال اللغة الدينية، وأن اتخذ موقفًا بالنسبة للانتقادات المصاغة في مواجهة الأسطورة، وبالتالي أن أتخذ موقفًا منها، وصولًا إلا استبعادها، أو إبطال أسطرة الدين.

في البداية، سأميّز بين الأسطورة كتعبير عن الخبرة الدينية، وذهنية الأسطورة كموقف يتخذه الإنسان بمواجهة الحقيقة الدينية. سنعالج هنا الأسطورة في علاقتها مع اللغة الدينية.

لأنتقل بعد ذلك للتفريق بين الأسطورة الأصيلة، التي تقوم بتبيين إيمان الأشخاص وآمالهم فيما يتعلق بمصيرهم ونجاتهم. وأيضًا في جهدهم لإيجاد القواعد التي توجّه حياتهم. وأخيرًا في الوسائل التي توصلهم إلى النجاة في كل أبعاد حياتهم. هذه الأساطير هي تعبير عن الخبرة في التعالي الديني، وهي بالنتيجة تنقل الواقع المتعالي، والثقل الأنطولوجي القابل للفهم، والذي يشكّل في نهاية الأمر جوهر الاعتقادات الأكثر قدسية.

هذه الأسطورة مصمّمة لتكون واسطة تسمح لإنسان بالاقتراب من الحقيقة، التي لا توصف. وتلعب دورًا في فهم الكمال المطلق لله. وهذا لا يتعلق بطريقة رمزية، بل بضمير المعتقدين على مستوى الحقيقة والواقع.

هناك أيضًا أسطورة لاحقة، تساعد في الانعكاس اللاهوتي في إبراز معتقداتها أو بالأحرى تتداخل مع اللغة الرمزية أو التي تؤلف عنصرًا من الإيحاء الشعري. تلك الأسطورة ليست تعبيرًا مباشرًا عن الإيمان أو الرجاء والأمل عند الأشخاص، بل هي فقط مساعدة لتسهيل تقديم عدة أنواع من التصورات، التي يقوم بها الأشخاص بدافع من إيمانهم، وبحجم الخلاص الموعود من دياناتهم.

وظيفة وأهمية الأسطورة

سآخذ بعين الاعتبار التطور التالي للأساطير الأصيلة.

الأسطورة في خدمة الحياة

الأسطورة هي رؤية للكون [...]، وبالأخص رؤية للحياة، فهي تقدّم للإنسان توجيهًا لحياته [...] يساعده في الاندماج أو التكامل مع الماضي للسيطرة على الحاضر، ولرسم مشروع المستقبل. تمامًا إذا قدّمت الأسطورة على شكل قصص، الغرض منها ينتج أقل من الشروحات العلمية المتنوعة، أو النصف علمية، أو القريبة من العلم، التي توصل إلى الحقائق النجاتية.

ولكن الأسطورة تحتوي بين عناصرها المتعدّدة بعض المعارف من القوانين التي تُعنى بعمل الطبيعة، والبعض الذي يطال تقنيات الحياة العملية. بعض التقنيات الإدراكية التي تتناسب مع الأصول الكونية، أو خلق مسبّب لهذه الطقوس والخبرات، مثلما تمامًا بعض المراكز المتخصّصة التي تتناسب مع طريقة استعمال مؤثرة للكون وللحياة.

عندما أتكلم في هذا الحديث عن المعارف وعن التفسيرات، أفكّر بشكل أقل بأفكار وبنظريات منطقية من المعارف المنطلقة من الحاجات العاطفية، وبالانطباعات المتخيّلة للإنسان، التي تظهر له متعلقة بضمان مصالحه الحيوية. وهذا يكون لأن هذه المنافع والمصالح تؤسّس نمطًا منظمًا للإنسان في كل علاقاته مع الكون، مع الحياة، وعلى الأخص مع سيد هذا الكون وهذه الحياة، مع السمو، مع المطلق، مع الله. هذا النمط المنظم يزود الإنسان بيقين داخلي لا يشعر به إلا عندما يقتنع بأنه كائن على طريق النجاة الأكيد. لذلك، الأسطورة كلما كانت ترتدي الطابع العملي بصفتها موجها في الكون وفي الحياة، يظهر قصدها في إيصال الحقيقة. لذلك نستطيع تسميتها، – تمامًا لأنها تكون مؤثرة — حقيقة النجاة. حقيقة النجاة بقدر ما لا يحدّها قواطع، جزئية من الكون أو من الحياة، ولكن تنشدّ إلى كماليات الكون والحياة كما تطمح لتظهر المعنى الأخير للكون والحياة، وتساعد على تحقيق هذا المعنى.

الأسطورة هي التعبير عن التعالي

لكن الأسطورة لا يمكنها الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا تخطّت الواقعية الأرضية، وتعلقت بحقيقة علوية، واقعة ما وراء الكون والإنسان. لهذا السبب الأسطورة بالنسبة لطبيعتها شكل من أشكال التعبير عن التعالي؛ وهي تقوم بذلك باستعمال لغة تستند إلى صور ووسائل إيحاء للتعبير عن الخبرة الدينية للأشخاص، لأن الله السيد الأعلى

للكون وللحياة لا يترك نفسه مقيدًا بمعادلات منطقية، فالمعادلات المنطقية، والتشدّد في السبب لا يكفي لإظهار كل الغنى في الخبرة الدينية.

في الواقع، الربّ يكلّم الإنسان بكليته، والخبرة الدينية تتلاءم مع كل أنماط حياة الإنسان، ليس فقط السبب مع منطقه، بل أيضًا مع التصورات، مع الشعور ومع الإرادة. لذلك، فالمعادلات المنطقية لوحدها غير كافية لبلورة المحتوى الكامل للخبرة الدينية.

من جهة أخرى، الأسطورة هي أيضًا خبرة غير كافية من الخبرة الدينية. ولكن بما أنه يتكوّن لدى الإنسان خبرة حية للواقع، ويوجّه فيه السبب أقل من التصور والعامل العاطفي. وكما أن الإنسان يعرف من خلال تصرفاته التي تكون متوافقة مع معطياته، لذلك نستطيع اتخاذها كتعبير عن الحقيقة غير الكافية ولكن هي شرعية ولازمة للخبرة الدينية.

لكي يسهل فهم ذلك، سأسمح لنفسي بإعطاء مثال مستخرج من الحياة اليومية؛ هناك مظهر في الحياة لا نستطيع إدراك أهميته ونوعيته بالأسباب المنطقية فقط. مثال الموت، في مجال المنطق والتفكير المنطقي لا نستطيع أن نقول إلا بالبساطة التي يظهر بها الموت. الموت يتضمن خصائص مأساوية، وأهميته في ميدان الحياة تمامًا، كالخبرة المعاشة في ميدان القيم والإدراك.

التعبير الأصولي لا يمكنه إذًا احتضان كل اتجاهات الخبرة الدينية. الأسطورة في لغتها التعبيرية التي تستند على الصور، وعلى الرموز الطبيعية، تبقى واحدة من الوسائل الأكثر أهمية للتعبير عن الله في الغنى، في وجوده، وفي الأهمية المتعددة لقوته وفي حركته، لكي يملك التحكّم بالأشخاص في حركتهم الحياتية.

هذا هو الفرق بين التفكّر والحركة؛ الإنجيل بدلًا من أن يخسر في بعض تصوراته عن المحبة فيما يتعلق بالقادم، مثلًا يقدّم حكمة (Cell du bon smaritain) et (conclut: "va et agis de meme…).

الأسطورة عنصر ثقافي

هناك وجه آخر للأسطورة، وهي تألف البعد الثقافي. في البداية لأنها تعبّر عن الخبرة الدينية المشتركة في المجتمع. ثانيًا: لأن الأسطورة تتضمن نماذج من السلوكيات، مخصصة لتمتين النظام الاجتماعي، وأيضًا لتحرير الروح لتقوم بنشاطاتها الخلاّقة في الثقافة. هذا النظام، يستطيع في الحقيقة أن يشكّل في السياق، وفي البعد العقلي الأسطوري

حاجزًا في عملية خلق الروح، ومنع التطور وارتقاء الثقافة. ولكن في سبيل ذلك، يجب أن يعطى الإنسان حرية آمنة، للوصول به إلى السلام اليقيني، وأن يضع في ميله بعض النماذج الحركية التي تقوم بالتجربة، تمامًا مثل مركز الكون والمجتمع، مثلما التاريخ في حركته يتضمن نور الماضي الناجح، موضوعة تحت تصرّف الأشخاص، في الفكر الإنساني، الروح الإنسانية، يجب وضعها في دور السيطرة على الحاضر، والتأسيس للأمل للمستقبل.

هل يجب دحض أسطورة الدين؟

الأسطورة ملأت حياة الأشخاص في الماضي – في الماضي (البائد) أو المنصرم لكثير من الأشخاص أو الآخرين في الماضي القريب، والذي امتدت فعاليته إلى الوقت الحاضر، مهمة محورية، في حين أنه فقدَ الكثير من مفعوله في ضمير الأشخاص في العصر الحديث. وهذا نتج في مجموعة من الذين اعتبروا أن الأفعال والصور التي تستحضرها الأسطورة لا تجيب عن تجربة الحياة في أيامنا هذه، لذلك نستطيع التساؤل عما إذا كانت الأسطورة تستطيع الاستمرار في تلبية الوظيفة التي كانت لها في الماضي، أو إذا كان من اللائق أن نستبعدها لأن رؤية الكون، التي نستند إليها، هي حاليًا تخطت أو دُحضت من قبل رؤية العصر التي تستند على العلوم الطبيعية في عصرنا هذا؟ في المقابل يجب التساؤل – وهذا يكون لنتناول أطروحة (Rudolf Bultman) وتلامذته – إذا كان الرداء الأسطوري لا يحجب المعنى الذي تريد الأسطورة إيصاله بطريقة معيّنة من النصوص الدينية المتضمنة معنى يتحول إلى حقيقة مجرّدة من معنى يمكن الإطلاع عليه للوصول إلى هذا المعنى الذي يريد الدين إيصاله، كان يجب إذًا تعرية النصوص من غطائها الأسطوري، كان يجب نقص الأسطورة لتسليط الضوء على محتواها الممكن تبليغه، ورسالة السلام، ووضع بعد ذلك الأشخاص في موضع القرار الوجودي، وإخضاعه إلى مجموعة من الرسائل الدينية.

بعد ذلك، هل استطعنا إعادة إرشاد الرسالة الدينية في وضع فعّال؟ هل يجب نقض أسطورة الدين أو اللغة الدينية؟ نعم، ولكن بتحفظات.

إسقاط الأسطورة للغة الدينية هو مفضّل، وأيضًا ضروري حيث إن الأسطورة لا تبينه كفاية، – مثلما في الأصل – حقيقة النجاة، ولكن خفّضت إلى تعبير خاص من الواقع المعقد للكون وللحياة. ولهذا حيث إن التعبير عن اكتمال الحياة، عن أحاسيس الأشخاص، عن مخاوفهم وعن آمالهم، عن نماذج الحياة وعن الآفاق المفتوحة للمستقبل، ولكن فقط عن مخزون المعارف عن الأجيال الإنسانية. في الواقع، في هذا المخزون، يمتزج الإرث

القريب من العلمي إلى الإيمان الديني. الإرث القريب من العلمي، يجب أن يأخذ مكان في المعارف الدينية، غموض الإشارات يجب أن يُملؤا بالقواعد اللاهوتية الفلسفية بالبراهين الأصيلة.

دحض الأسطورة للغة الدينية مرغوب فيه؛ لذلك حيثما إن الصور والإشارات المستعملة للأسطورة لا يمكن بواسطة الأشخاص؛ لأنهم لا يشكّلون أكثر من فئة بالنسبة لخبرتهم المعاشة، مآلهم لأن يصبحوا من الممكن الانفتاح عليهم، وبالنتيجة خسروا عنفوانهم وفعاليتهم.

وكلا ولكن نحفظ.

مع ذلك، إسقاط الأسطورة لن نستطيع معرفتها بالكامل، لأن الأسطورة لا يجب تلمّس فعاليتها فقط بواسطة مضمونها المجرّد. فعاليتها تتولد من العقل الطامح إلى الحقيقة السامية، والبحث عنها لتوضيحها. هذا المعنى للأسطورة، يجب أن يحفظ. وكما أن التعالي مثل الله، لا يمكن الوصول غليه أو التعبير عنه بدقة بواسطة وسائل، بحقيقة واحدة، اللغة الدينية لا يمكن نفيها بوجه أسطوري. الله الذي هو بالمطلق أكثر رقيًا وغير مقارن بخلاف ظواهر الوجود والحياة الإنسانية، وهو لا يُترك مؤطرًا في تعاريف أصولية للاهوت، وفي اللغة الوظيفية للعلوم. تخطت هذه التصنيفات وهذه اللغة، هي هذه الأكثر، هذا الذي يعلي التصنيفات المنطقية للتفكير وللوسائل الوظيفية للغة. لذلك فإسقاط الأسطورة بالشكل الكامل من الدين، ومن اللغة الدينية غير ممكن، هي في المقابل مرغوب بها، لأنها لن تنكر أبدًا طبقة الحياة والضمير الإنساني (مخيلة وشعور)، وأكثره مجموعة من وسائل التعبير.

أكثر من ذلك إسقاط الأسطورة بشكل كامل من الدين يمكن أن يكون خطرًا؛ لأنها لا تأخذ في حسابها أن مسألة تمرير بعض رؤية الكون (لنقول الرؤية القديمة للكون) إلى رؤية جديدة له لا تتم في نفس الوقت في شعور كل أفراد الجيل أو المجتمع الديني. جُمل التطور أو التغيير في الشعور، علم النفس وأخلاقيات الأشخاص في مجتمع معيّن لا يدور مع التوازي الشديد لكل أعضاء هذا المجتمع. إسقاط الأسطورة الكامل سينتج عنه بالاحتمال، وبالأكثر – تحويلًا للاتجاه في الموقف بالنسبة للمخلصين في المجتمع الديني.

هل نخلق أساطير جديدة؟

هل يجب إذا خلق أساطير جديدة تتلاءم مع حالة الشعور للأشخاص في زمننا هذا؟ ليس من السهل في أيامنا هذه، خلق أساطير مشابهة لتلك التي كانت في العصور القديمة، ليس في تركيب الجمُل أو بمحتواها، بل

بنوعيتها وسلطتها. لكن نستطيع التفكير هنا بإدخال رموز جديدة قابلة للوصول إلى الأشخاص في زمننا هذا، وبإخضاعهم لرسالة الحقائق الدينية.

نحن نتنبؤ بالصعوبة لهذه المهمة الواضحة عندما نطالب بها، حيث نجد هذه الرموز الفاعلة مضبوطة مع أخلاقية الأشخاص في عصرنا الحديث.

سنستطيع التفكير بأن نعهد بهذه المهمة إلى اختصاصيين ممتلئين باللاهوت والطقوس الدينية مثلما هم ممتلئون بالعلوم والتقنية. ولكن الكل يعلم إذا هذه الرموز المبتكرة والاصطناعية هي قادرة على لعب الدور الذي كان للأسطورة الأصيلة. إذا كانوا قريبين من حياة الأشخاص بالطريقة التي يستطيعون إيصال الرسالة الدينية. هذه الرسالة التي توصلهم إلى شعورهم العميق وفي مخيلتهم الخلاّقة وهكذا يستطيعون تحفيز إرادتهم. للوصول إلى هذا الهدف يجب أن يتلاقى عدة عوامل: إلهام مملوء بالإدراك للعثور على هذه الرموز الجديدة. كاهن يتمتع بأخلاقية للحصول عليها. وقت كاف لترسيخ قبولهم لهذه الرموز الجديدة؛ وتمكينهم من ترسيخ أخلاقية الأشخاص في مجتمع معين.

نستطيع أيضًا أن ندافع عن الولادة العفوية لهذه الرموز، هذا سيكون لجدارة الأشخاص المتدينين بعمق، والمنفتحين على أخلاقيات معاصريهم. بقي هناك الوقت وعملية اكتساب، ستحتّم تأمين إنضاج هذه الرموز، وتحويلها إلى عناصر مؤلّفة للموقف في المجتمع.

خلاصة

بسبب الشكل المادي الذي قدّمت فيه الأسطورة (والدين بشكل عام) الذي لا يعكس أبدًا بطريقة كاملة، صدق وكمال قصدها العميق، فأهمية هذا الدور يحتّم على فلسفة الدين، وعلى نقد الدين معرفة بعض الأمور المساعدة.

الدفاع عن التوجيه العملي للدين بمواجهة النزعات الأيديولوجية.

أخيرًا، تجريد الانتظار الأخروي للدين وتاريخ النجاة للفيض اليوتوبي المطلق العنان.

مخاطر أسطورية الدين

بمقدار عدم استطاعتنا أن نرقي إسقاط الأسطورة مع تحفظ قليل من الدين، وعدم تنفيذ إسقاط الأسطورة إلا في إطار محدود وبإطار حكيم، بقدر ما يجب تفادي، – في اتجاه مقابل —، أسطرة الدين والخلق في المجتمع الديني، أخلاقية أسطورية.

الأخلاقية الأسطورية، وثبات الأسطورة تتضمن خطورة في تطور الإنسان في تاريخه.

الفعل بأن الأسطورة تثبّت الانتباه عند الأشخاص على مدار التاريخ — على نمط لا يتغير، مثبت في الأصل، يؤدي إلى الهون عند الإنسان فيما يتعلق بالشعور بالتاريخ مع كل احتياجاته المتغيرة، وكل تصحيحاته المستمرة. مثل ذلك التثبت في نمذوج ماض هو مانع للحرية الخلاقة للإنسان، وإرادته لإعطاء اليد في بناء قدرِهِ، وتشكيل تاريخه، وتحمّل المسؤولية لقراراته الخاصة.

إن أخلاقية الأسطورة تمنع غالبًا استعمال التأويل الديني بشكل صحيح، ويقود لرفض تمييز ضروري. التفريق بين القصد في النموذج الأولي والحلول المجرّدة لهذا النموذج. هذه الحلول المجرّدة أظهرت في التاريخ تجربة الحياة في الأجيال الماضية، لكن لم يكونوا دائمًا متوافقين مع احتياجات الوقت القادم، وخسروا كثيرًا من قيمتهم لأجل الحاضر والمستقبل.

لكن ضرورة قيام هذا التمييز بين القصد والحلول المجرّدة للنموذج في الماضي تبعد الكثير في الزمن من الأصوليين في كل الأديان ومن كل التوجهات.

إنكار التاريخ أو نسيان التاريخ والنزعة إلى عدم الاعتبار لإطلاق نتائج الأفعال من كل الأفكار أو كل النماذج هو خاضع للتاريخ المجرّد بكل حدوده، وكل تقلباته، وكل حلوله الوسط، هي أخطاء الأصوليين التي يتوجب تنسيقها (أو ترتيبها) في الأكثر خطورة.

لأن الأسطورة تستدعي قوى انفعالية (مؤثرة) من الإنسان، هناك مخاطرة من أن يصل الإنسان إلى موقف مفعم بالعواطف من الصعوبة في السيطرة عليها، لكن بمقدار سهولة المعالجة وإطلاقه من الذي هو من طبيعة تستتبع بعض التحولات المدمّرة.

أخيرًا، أسطرة الدين هي غالبًا الطريق الأكثر قصرًا للعمل من الرسالة الدينية أيديولوجية سياسية، وتعرية الرسالة الدينية من بعدها العلوي أو – الأسوأ أيضًا – من فعل استدعاء لذلك السمو ليُستعمل للدين، آلة، لخدمة الطموح الأرضي.

سيكون لدينا بعض الأشياء لقولها في هذا الموضوع: من دواعي سروري في هذا الإطار في هذه المشاركة من بعض الملاحظات التي سأضيفها.

تلخيص

إن تنقية الدين من المزايدة في الأسطورة من الأيديولوجية ومن الطوباوية لن يترك تنفيذه بشكل أصلي، هذا فقط في نهاية الكون والزمن والتاريخ عندما يكون الدين ليس بحاجة للأسطورة أو عناصر الأسطورة، عندما لا يلجأ المجتمع بعد إلى الأيديولوجيا وعندما يلغي التاريخ الطوباوية.

لكن بقدر ما نحن نعيش في زمن، وأن تاريخنا يتمحور حول إشارة الوعد بالنجاة، الدين وأيضًا الأسطورة ستكمل بإرادة أن تظهر حقيقة النجاة وتظهر كفاءتها في هذه الحقيقة لمصلحة كل الأشخاص.

الحقيقة وفعالية هذه الرسالة لا يستطيعوا أن يكونوا مدركين إلا بالإيمان.

الإيمان هو الوحيد الذي يحوّل الأسطورة إلى كلام يتضمن حقيقة النجاة، والإيمان يسمح بمعرفة مدى فعاليته. الإيمان في النهاية الموجود في عيون المؤمنين هو الذي يحقق الحقيقة الدينية ويؤسس ضمانة أكيدة لفعاليته.

الإيمان هو الكنز غير المثمن الذي ندافع عنه بمواجهة التطور في الأخلاقية الأسطورية والتي يجب المحافظة عليها حية لنستطيع بناء رجائنا.

الأسطورة هي دلائل الواقع الذي لا يستطاع فهمه وإدراكه في قصده إلا بالإيمان.

ختامًا لهذه العجالة، نعرض لتجربة في تفسير الأسطورة ووظيفتها في منظومة التعابير الدينية: الأسطورة (كجزء من الدين) هي التعبير والتأكيد لحقيقة النجاة ولواقع النجاة، في حين أن الإيمان يعرف كواقع يسند إليه فعالية نجاتية، وحيثما الإنسان يغترب من التوجيهات العملية المعاقب عليها من سلطة الرب ومعمول به في إطار حياة المجتمع.